العمر، العنصر، الطبقة والنوع: النساء يعدن تعريف الاختلاف[1]

ترجمة: تامر موافي

مراجعة وتحرير: سماح جعفر

كثير من تاريخ أوروبا الغربية يفرض علينا أن نرى الاختلافات البشرية في تضاد بسيط مع بعضها البعض: السيادة/الخضوع، الخير/الشر، الأعلى/الأسفل، الأسمى/الأدنى. وفي مجتمع يتم فيه تعريف الخير وفق شروط الربح بدلًا من الحاجة الإنسانية، ينبغي دائمًا أن تكون ثمة مجموعة من الناس الذين يمكن جعلهم يشعرون بأنهم زائدون عن الحاجة، من خلال القمع المنهجي، ويحتلون موقع الأدنى المجرد من الإنسانية. وفي مجتمعنا هذا، تتشكل هذه المجموعة من السود ومواطنو العالم الثالث، والطبقة العاملة، والأكبر سنًا، والنساء.

كامرأة في التاسعة والأربعين من عمري، سوداء، مثلية، نسوية، اشتراكية، وأم لطفلين، أحدهما صبي، وشريكة في زواج مختلط، اجد نفسي- عادة جزءَ من مجموعة يتم تعريفها على أنها مختلفة، أدنى أو فقط تمثل خطأً واضحًا. وفي المجتمع الأمريكي، يتوقع تقليديًا من أعضاء المجموعات المقموعة والذين ينظر إليهم كأشياء، أن يمدوا أيديهم ويعبرون الفجوة بين وقائع حياتنا وبين وعي من يقمعوننا. فحتى نبقى على قيد الحياة، فإن هؤلاء الذين كان القمع بالنسبة لهم أمريكيًا بقدر ما فطيرة التفاح كذلك، كان عليهم دائمًا أن يراقبوا، وأن يكونوا معتادين على لغة وسلوك قامعيهم، وفي أحيان كان عليهم أن يتبنوا هذه اللغة وهذا السلوك للحصول على حماية وهمية. وأينما ظهرت الحاجة إلى بعض من ادعاء التواصل، فإن هؤلاء المنتفعين من قمعنا يطالبوننا بمشاركة معرفتنا معهم. بعبارة أخرى، إنها مسؤولية المقموع أن يعلم قامعيه عن أخطائهم. فأنا مسؤولة عن تعليم المدرسين الذين يُقصُون ثقافة أبنائي في المدرسة. وكذا فإن السود ومواطنو العالم الثالث يُتوقع منهم أن يعملوا البيض عن حقيقة كوننا بشر- ويُتوقع من النساء أن يعلموا الرجال، والمثليات والمثليين أن يعلموا العالم غيري الجنس. فالقامعين يتمسكون بموقفهم ويتجنبون الاعتراف بالمسؤولية عن أفعالهم. وثمة استنزاف مستمر للطاقة التي كان من الأفضل أن تستخدم لإعادة تعريف أنفسنا وتوظيف سيناريوهات واقعية لتغيير الحاضر ولبناء المستقبل.

الرفض المؤسسي- للاختلاف هو ضرورة قصوى في مجتمع قائم على تحقيق الربح وفي حاجة إلى منبوذين يجعل هم زائدين عن الحاجة. وكأعضاء في مثل هذا الاقتصاد، تمت برمجتنا جميعًا للاستجابة إلى الاختلافات الإنسانية فيما بيننا بخوف ونفور وأن نتعامل مع هذه الاختلافات بأحد طرق ثلاثة: أولًا تجاهلها فإن لم

يكن هذا ممكنًا، فعلينا تقليدها إذا ما ظننا أنها سائدة، أو أخيرًا علينا تدميرها إذا ما ظننا أنها أدنى منا. ولكننا لا نملك نماذج للتواصل عبر اختلافاتنا الإنسانية على أساس المساواة بيننا. وكنتيجة لذلك، فإن هذه الاختلافات قد أسيء تسميتها وأسيء استخدامها في خدمة إحداث الفرقة والتشوش.

ثمة بالتأكيد اختلافات حقيقية بيننا من حيث العنصر والعمر والنوع. ولكن هذه الاختلافات ليست هي ما يفصل بيننا. وإنما رفضنا لملاحظة هذه الاختلافات ولفحص التشوهات الناتجة عن اساءة تسميتها وآثار ذلك على السلوك والتوقعات الإنسانية.

العنصرية: الإيمان بتفوق أصيل لأحد الأجناس على غيره ومن ثم حقه في السيادة عليها. الذكورية: الإيمان بالتفوق الأصيل لأحد النوعين على الآخر ومن ثم حقه في السيادة. التفرقة على أساس العمر، الغيرية الجنسية، النخبوية، الطبقية.

إنه عمل يستغرق عمرا بأكمله لأي منا أن يسعى إلى استخلاص هذه التشوهات من حياتنا وفي نفس الوقت أن يلاحظ ويسترد ويعرّف الاختلافات التي فرضت هذه التشوهات عليها. لأننا جميعًا قد تربينا في مجتمع كانت حياتنا فيه موبوءة بهذه التشوهات. وفي أغلب الوقت، نبدد الطاقة اللازمة للتعرف على الاختلاف واستكشافه في ادعاء أن هذه الاختلافات هي عوائق لا يمكن تجاوزها، أو أنه لا وجود لها على الإطلاق. وهذا يؤدي إلى العزلة الاختيارية، أو إلى إقامة صلات زائفة وغير موثوقة. وفي أي من الحالين، لا نطور أدوات لاستخدام الاختلاف الإنساني كأساس للتغيير الخلاق في حياتنا. فنحن لا نتحدث عن الاختلاف بل عن الانحراف الإنساني.

في مكان ما، على حافة الوعي، ثمة ما أسميه معيارًا خرافيًا، والذي يعرف كل منا في أعماقه "إن هذا ليس أنا". في أمريكا، يتم تعريف هذا المعيار عادة بأنه أبيض، نحيف، ذكر، شاب، غيري جنسيًا، مسيحي، وآمن ماديًا. وفي إطار هذا المعيار الخرافي تكمن خيوط السلطة في هذا المجتمع. فهؤلاء منا الذين يوجدون خارج أروقة السلطة يتم تعريفنا بطريقة أو بأخرى بوصفنا مختلفين، ونحن نفترض أن هذها هو السبب الأساسي لكل قمع، متناسيين التشوهات الأخرى حول الاختلاف، والتي قد نمارس نحن أنفسنا بعضا منها. وبقدر أو بآخر فإنه في الحركة النسوية اليوم، تركز النساء البيضاوات على ما يتعرضن له من قمع بوصفهن نساء ويتجاهلن اختلافات العنصر والتوجه الجنسي والطبقة، والعمر. وثمة ادعاء لتجانس التجربة تحت غطاء كلمة الأخوية التي لا وجود لها في الواقع.

الفوارق الطبقية غير المعترف بها تجرد النساء من طاقات بعضهن البعض ومن رؤاهن الخلاقة. كمثال اختارت مجلة نسائية مؤخرًا لأحد أعدادها أن تنشر نصوصًا نثرية فقط، قائلة أن الشعر كان شكلًا فنيًا أقل دقة وجدية. ومع ذلك فإن الشكل الذي تتخذه ابداعاتنا الفنية هو دائمًا مسألة طبقية. والشعر، من بين كل الأشكال الفنية، هو الأكثر اقتصادًا. فهو الشكل الأكثر سرية، والذي يتطلب أقل جهد بدني، وهو الأقل مادية، والذي يمكن القيام به بين فترات العمل، في كافيتريا المستشفى، في المترو، وعلى قصاصات الورق

الزائـدة عـن الحاجـة. وخـلال السـنوات الأخـيرة، بيـنما كنـت أكتـب روايـة بتمويـل محـدود، أمكننـي ان أقـدر الفـارق الضـخم في المتطلبـات الماديـة بـين الشـعر والنـثر. فبيـنما كنـا نسـتعيد أدبنـا الخـاص بنـا، كـان الشـعر هـو الصـوت الرئيسي- لنسـاء الطبقـة العاملـة الملونـات والفقـيرات. في المقابـل قـد يكـون ضروريًـا أن يكـون لـك غرفـة خاصة بك لكتابـة عمـل نـثري، وكـذا الكثـير مـن الـورق، وآلـة كاتبـة، وكثـير مـن الوقـت. وبالمثـل تسـاعد المتطلبـات الواقعية لإنتـاج أعـمال الفـن التشـكيلي عـلى تحديـد، أي فـن هـو مناسـب لمـن مـن النـاس عـلى أسـاس طبقـي. وفي زمننـا هـذا حيـث ترتفـع أسـعار المـواد المختلفـة، مـن هـم نحاتونـا، ورسـامونا، ومصـورونا الفوتوغرافيـون؟ فعنـدما نتحـدث عـن ثقافـة نسـائية واسـعة القاعـدة، نحتـاج إلى أن ننتبـه لأثـر الطبقـة والفـوارق الاقتصـادية عـلى المتطلبات المتاحة لإنتاج الفن.

بيـنما نتحـرك نحـو خلـق مجتمـع يمكـن لكـل منـا الازدهـار فيـه، يكـون التمييـز عـلى أسـاس العمـر تشـوهًا آخـر لعلاقاتنـا يتـدخل في مسـعانا مـع غيـاب الرؤيـة. وبتجاهـل المـاضي، نجـد أنفسـنا مـدفوعين إلى تكـرار أخطائـه. فـالفجوة بـين الأجيـال هـي أداة اجتماعيـة هامـة لأي مجتمـع قمعـي. فـإذا نظـر أعضـاء المجتمـع الأصـغر سـنًا إلى الأكـبر سـنًا عـلى أنهـم مسـتحقون للاحتقـار أو مشـكوك فـيهم، أو زائـدون عـن الحاجـة، فلـن يمكـنهم أبـدًا أن يوحـدوا جهـودهم معهـم لفحـص الـذكريات المعيشـية للمجتمـع، ولا أن يطرحـوا السـؤال الأكـثر أهميـة: "لمـاذا؟" وهـذا يـؤدي إلى فقـدان للـذاكرة التاريخيـة نسـتمر معـه في إعـادة اخـتراع العجلـة في كـل مـرة نحتـاج فيهـا إلى الذهاب إلى المتجر لشراء خبزنا.

نحـن نجـد أنفسـنا مضـطرين إلى تكـرار أو إلى إعـادة تعلـم نفـس الـدروس القديمـة التـي تعلمتهـا أمهاتنـا، مـرة بعـد مـرة، لأننـا لا ننقـل مـا تعلمنـاه إلى الآخـرين، أو لأننـا غـير قـادرات عـلى الإنصـات. وعـلى سـبيل المثـال، كـم مـرة سـبق لمـا أقولـه الآن أن قيـل مـن قبـل؟ وكمثـال آخـر، مـن منـا قـد تصـور أنـه مـرة أخـرى ستسـمح بناتنـا لأجسادهن بأن تعذب وتشوه بأحزمة التقويم والأحذية ذات الكعوب العالية والتنانير الضيقة؟

تجاهـل الفـوارق العنصـرية بـين النسـاء وآثـار هـذه الفـوارق يمثـل التهديـد الأكـثر جديـة لحشـد القـوة المشـتركة للنسـاء. فبيـنما تتجاهـل النسـاء البيضـاوات المميـزات المسـبقة للـونهن، ويعـرفن المـرأة وفـق شروط تجـربتهن وحـدها، تصـبح النسـاء الملونـات "الآخـر"، الغريـب، مَـن تجربتـه وتقاليـده "أجنبيـة" إلى حـد لا يمكـن معـه فهمهـا. والغيـاب ذو الدلالـة لتجربـة النسـاء الملونـات كمـورد لـبرامج دارسـات النسـاء، هـو مثـال لـذلك. لأنـه نـادرًا مـا يـتم تضـمين أدب النسـاء الملونـات في الـبرامج الدراسـية لـلأدب النسـائي ويكـاد ينعـدم في غيرهـا مـن بـرامج دراسـة الأدب وكـذا في الدراسـات النسـائية بصـفة عامـة. ودائمًـا يكـون العـذر المعلـن هـو أن أدب النسـاء الملونـات يمكـن فقـط أن تشرـحه نسـاء ملونـات، أو أن هـذا الأدب مـن الصـعب فهمـه، أو أن الطالبـات لا يمكـنهن "النفـاذ" إليـه لأنـه نـاتج عـن تجـارب هـي "مختلفـة أكـثر مـما ينبغـي". وقـد سـمعت هـذه الحجـة، تطرحهـا نسـاء بيضـاوات، هـن فـيما عـدا ذلـك يتمـتعن بـذكاء واضـح، وهـن نسـاء لا يبـدو أن لـديهن أي مشـكلة عـلى الإطـلاق في تـدريس ومراجعـة أعـمال أنتجتهـا تجـارب شيكسـبير، ومـوليير، ودوستويفسـكي، وأريسـتوفانس، شديدة الاختلاف عن تجاربهن. ومن ثم فبالتأكيد ثمة تفسير آخر.

هـذا سـؤال شـديد التعقيـد، ولكننـي أؤمـن بـأن أحـد أسـباب الصـعوبة التـي تجـدها النسـاء البيضـاوات في قـراءة أعـمال النسـاء السـوداوات هـو تكاسـلهن عـن رؤيـة المـرأة السـوداء كـامرأة هـي في نفـس الوقـت مختلفـة عـنهن. فاختبـار أدب النسـاء السـوداوات بشـكل فعـال يتطلـب أن تـتم رؤيتنـا كشـعب في مجملـه وفي تركيبتنـا الفعليـة – كـأفراد، كنسـاء، وكبشر– بـدلًا مـن رؤيتنـا كواحـدة مـن هـذه الـنماذج النمطيـة الإشـكالية ولكنهـا في نفـس الوقـت مألوفـة، والتـي يفرضـها المجتمـع بـديلًا عـن الصـور الأصـيلة للنسـاء السـوداوات. وإننـي أؤمـن بـأن هـذا يبقى صحيحًا فيما يتعلق بآداب النساء الملونات الأخريات من غير السوداوات.

إن آداب كـل النسـاء الملونـات تعيـد خلـق الاحسـاس بحياتنـا، وكثـير مـن النسـاء البيضـاوات محبوسـات تمامًـا في تجاهـل الاختلافـات الحقيقيـة. لأنـه طالمـا كـان أي اخـتلاف فـيما بيننـا يعنـي أن أحـدنا أدنى مـن الآخـر، فـإن الاعـتراف بـأي اخـتلاف لابـد وأن يكـون محمـلًا بالشـعور بالـذنب. والسـماح للنسـاء الملونـات بـالخروج عـن الأنماط التقليديـة يحفـز كثـيرًا مـن الشـعور بالـذنب، لأنـه يهـدد كـل هـؤلاء النسـاء الـلاتي يـرين القمـع فقـط وفـق شروط النـوع بـأن يـتهمن بـالتواطؤ. فـرفض الاعـتراف بـالاختلاف يجعـل مـن المسـتحيل رؤيـة المشـاكل المختلفـة والعراقيل الخفية التي تواجهنا كنساء.

ومـن ثـم، فإنـه في منظومـة سـلطة أبويـة، حيـث ميـزة البشرة البيضـاء هـي عامـل تقـدم رئيسي، تكـون الفخـاخ المسـتخدمة لتحييـد النسـاء السـوداوات ليسـت هـي نفسـها المسـتخدمة لتحييـد النسـاء البيضـاوات. فعـلى سـبيل المثـال، مـن السـهل أن تسـتخدم النسـاء السـوداوات مـن قبـل بنيـة السـلطة ضـد الرجـال السـود، لـيس لأنهـم رجـال ولكـن لأنهـم سـود. وبالتـالي فمـن الضرـوري للنسـاء السـوداوات في كـل وقـت أن يفصـلن احتياجـات القـامع عـن التناقضـات المشرـوعة داخـل مجتمعاتنـا. هـذه المشـكلة لا وجـود لهـا في حالـة النسـاء البيضـاوات. فقد تشـارك النسـاء والرجـال السـود الخضـوع للقمـع العنصري ومـا زالـوا يتشـاركونه، عـلى الـرغم مـن تعـرض كـل مـنهما لـه بشـكل مختلـف. ومـن خـلال هـذا القمـع المشـترك طورنـا دفاعـات مشـتركة ونقـاط ضـعف مشـتركة تجـاه بعضـنا الـبعض، لا مثيـل لهـا في المجتمـع الأبـيض، مـع اسـتثناء العلاقـة بـين النسـاء والرجـال في المجتمـع اليهودي.

عـلى الجانـب الآخـر تواجـه النسـاء البيضـاوات فـخ أن يسـتدرجن إلى مشـاركة القـامع تحـت دعـوى المشـاركة في السـلطة. وهـذه الإمكانيـة لا وجـود لهـا بالطريقـة نفسـها بالنسـبة للنسـاء الملونـات. فـالمفردات التـي يـتم أحيانًـا تمديـدها لتشـملنا ليسـت دعـوة للمشـاركة في السـلطة؛ "فآخريتنـا" العنصرـية هـي حقيقـة مرئيـة بحيـث تجعـل هـذا أمـرًا واضـحًا. في حـين أنـه بالنسـبة للنسـاء البيضـاوات ثمـة مجـالٌ أوسـع مـن الخيـارات المزعومـة والجـوائز للتماثل مع السلطة الأبوية ومع أدواتها.

اليـوم، ومـع هزيمـة الإي آر إيـه[٢]، والاقتصـاد المـنكمش، والمحافظـة المتزايـدة، أصـبح مـن السـهل مـرة أخـرى للنسـاء البيضـاوات أن يصـدقن التصـور الخيـالي الخطـر أنـك إن كنـت خـيرة بالقـدر الكـافي، جميلـة بالقـدر الكـافي، لطيفـة بالقـدر الكـافي، هادئـة بالقـدر الكـافي، وعلمـت أطفالـك حسـن السـلوك، وكرهـت مـن يسـتحقون الكراهيـة، وتزوجـت الرجـل المناسـب، فإنـه سيسـمح لـك بالتعـايش مـع الأبويـة في سـلام نسـبي، عـلى الأقـل حتـى

يحتاج رجل إلى وظيفتك، أو حتى يظهر مغتصب جديد في منطقة سكنك. وفي الحقيقة، إذا لم يعش أحدنا ويحب على خطوط المواجهة، يكون من الصعب عليهأن يتذكر أن الحرب ضد إهدار الإنسانية لا نهاية لها.

ولكن النساء السوداوات وأطفالنا يعرفون أن نسيج حياتنا مطرز بالعنف وبالكراهية إلى حد لا يسمح لنا بالراحة. فنحن لا نتعامل معهما فقط على خطوط المواجهة، أو في الحواري المظلمة في منتصف الليل، أو في تلك الأماكن التي نجرؤ فيها على إعلان مقاومتنا. فبالنسبة لنا، وبشكل متزايد، يخترق العنف النسيج اليومي لحياتنا – في السوبرماركت، في الفصل، في المصعد، في العيادة وفناء المدرسة، من السباك، الخباز، البائعة، سائق الحافلة، موظف البنك، نادلة المطعم التي ترفض خدمتنا.

ثمة بعض المشاكل التي نتشاركها بوصفنا نساءَ وثمة البعض الذي لا نتشاركه. فأنتن تخشين أن ينمو أطفالكن لينضموا إلى السلطة الأبوية وينقلبن عليكن، ونحن نخشى أن يجرجر أطفالنا من سيارة ما ويطلق عليهم الرصاص في الشارع، وأنكن سوف تدرن ظهوركن لأسباب موتهم.

لم يكن تهديد الاختلاف أقل تسبباً في العمى للملونين، فهؤلاء السود منا ينبغي أن يروا أن حقيقة حياتنا ونضالنا لا تكسبنا مناعة ضد أخطاء تجاهل الاختلاف واساءة تسميته. ففي المجتمعات السوداء حيث العنصرية هي حقيقة حياتية، تبدو الاختلافات فيما بيننا دائمًا خطرة وسببًا للشك. فالحاجة إلى الوحدة يساء تعريفها على أنها حاجة إلى التجانس، ويتم الخلط بين رؤية نسوية سوداء وبين خيانة المصالح المشتركة لنا كجماعة. وبسبب المعركة المستمرة ضد المحو العنصري التي يتشاركها الرجال والنساء السود، فإن بعض النساء السوداوات ما زلن يرفضن أن يعترفن بأننا أيضًا مقموعات كنساء، وأن العداء الجنسي- ضد النساء السوداوات لا يمارسه فقط المجتمع العنصري الأبيض، وإنما يتم داخل مجتمعاتنا السوداء أيضًا. إن هذا مرض يضرب قلب الأمة السوداء، ولن يؤدي الصمت إلى اختفائه. ونتيجة لتضخمه بسبب العنصرية وضغوط العجز، فإن العنف ضد النساء والأطفال السود يصبح دائمًا نمطًا ملازمًا لمجتمعاتنا، وهو نمط تقاس به الرجولة. ولكن نادراً ما تناقش هذه الأفعال الناتجة عن كراهية النساء بوصفها جرائم ضد النساء السوداوات.

النساء الملونات هن الفئة التي تحصل على أدنى الأجور في أمريكا، ونحن الهدف الرئيسي- للاستغلال في الإجهاض والتعقيم، هنا وفي الخارج. وفي مناطق بعينها من إفريقيا، لا زالت الفتيات الصغيرات يتم خياطة أعضائهن التناسلية لجعلهن أكثر طواعية، ولتحسين متعة الرجال، ويعرف هذا بطهارة النساء، وهي ليست مسألة ثقافية، كما أصر الراحل جوموكينياتا، وإنما هي جريمة ضد النساء السوداوات.

إن أدب النساء السوداوات ملئ بالألم الناجم عن الاعتداء المتكرر، ليس فقط من قبل الأبوية العنصرية، ولكن أيضًا من قبل الرجال السود، ومع ذلك فإن ضرورة المعركة المشتركة وتاريخها قد جعلننا، نحن النساء السوداوات، أكثر عرضة للاتهام الزائف بأن عداء الذكورية هو عداء للسود. وفي نفس الوقت، فإن لجوء العاجزين إلى كراهية النساء يستنزف قوى المجتمعات السوداء، ويستنزف حياتنا نفسها. فالاغتصاب المبلغ

عنه وغير المبلغ عنه يتزايد، والاغتصاب ليس جنسانية عدائية، بل هو عدوان جنسي- وكما يوضح الكاتب الأسود، كلامو يا سلام[٣]"، طالما وجدت سيادة الذكر، سيوجد الاغتصاب. فوحده تمرد النساء وإرغام الرجال على الوعي بمسؤوليتهم في مواجهة الذكورية، يمكن أن يؤدي إلى وقف الاغتصاب بشكل جماعي".

إن الفوارق بيننا كنساء سوداوات تساء تسميتها أيضًا ويتم استخدامها لفصل بعضنا عن بعض. فكنسوية مثلية سوداء أشعر بالراحة للمكونات المختلفة لهويتي، وكامرأة ملتزمة تجاه التحرر العنصري والجنسي- من صور القمع، فإنني أجد بشكل مستمر ضغطًا عليّ لأبرز أحد جوانب ذاتي ولأقدمه على أنه الكل ذو المعنى، مخفية أو منكرة الأجزاء الأخرى من نفسي- ولكن هذه هي طريقة مدمرة ومتشظية للعيش. فالتركيز الكامل للطاقة يتاح لي فقط عندما تتكامل كل الأجزاء المكونة لمن أكون، بشكل منفتح، متيحة للقوة النابعة من المصادر المختلفة لمعيشتي أن تتدفق بشكل حر ومتبادل خلال كل ذواتي المختلفة، دون المعوقات المفروضة من التعريفات الخارجية. ففقط حينها، يمكنني أن أحشد ذاتي وقدراتي ككل متكامل في خدمة هذه النضالات التي أعتنقها كجزء من حياتي.

خوف كثير من النساء السوداوات من المثليات، أو الخوف من أن يتم اتهامهن بأنهن مثليات، قد أدى بهن إلى إدانة أنفسهن. وقد أدى ببعضنا إلى تحالفات مدمرة، وبالبعض الآخر إلى اليأس والعزلة. وفي مجتمعات النساء البيضاوات تكون الغيرية الجنسية أحيانًا نتيجة للتماثل مع الأبوية البيضاء، ورفض لهذا الاعتماد المتبادل بين النساء اللاتي يعرفن ذواتهن كنساء والذي يسمح للذات بأن تكون لنفسها، بدلًا من أن تستخدم في خدمة الرجال. وفي بعض الأحيان تعكس الغيرية الجنسية إيمانًا أعمى بالحماية التي توفرها العلاقات الغيرية، وفي أحيان أخرى تعكس كراهية للذات نتعلمها منذ الميلاد ويجب أن تقاتل كل النساء ضدها.

وعلى الرغم من أن عناصر من هذه السلوكيات توجد في كل النساء، فإن ثمة وقع خاص للغيرية الجنسية والعداء للمثلية بين النساء السوداوات. وبرغم حقيقة أن الرابطة بين النساء لها تاريخ طويل ومشرف في المجتمعات الإفريقية والأفروأمريكية، وبرغم معرفة وانجازات العديد من النساء السوداوات القويات اللاتي يعرفن أنفسهن كنساء في المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية، فإن النساء السوداوات الغيريات يملن دائمًا إلى تجاهل وجود وأعمال المثليات السوداوات أو إلى التقليل من شأنها. وقد نجم جزء من هذا السلوك عن خوف مفهوم من هجوم الذكور السود داخل حدود المجتمع الأسود، حيث لا يزال عقاب أي أنثى تؤكد ذاتها هو اتهامها بأنها مثلية ومن ثم غير جديرة بالاهتمام أو الدعم من الذكر الأسود. ولكن جزء من هذه الحاجة إلى إساءة تسمية المثليات السوداوات وتجاهلهن يأتي من خوف حقيقي من أن السوداوات اللاتي يعرفن ذواتهن كنساء ولم يعدن يعتمدن على الرجال لتعريف ذواتهن من المتوقع أن يعدن ترتيب مفهومنا للعلاقات الاجتماعية في مجمله.

إن النساء السوداوات اللاتي أصررن من قبل على أن المثلية هي مشكلة تخص النساء البيضاوات، يؤكدن إصرارهن الآن على أن المثليات السوداوات يمثلن تهديدًا للأمة السوداء، وأنهن متحالفات مع العدو، وأنهن

غير سوداوات في الأساس. وهذه الاتهامات، الآتية من النساء أنفسهن اللاتي نتجه إليهن من أجل فهم عميق وحقيقي، قد أدت إلى إبقاء كثير من المثليات السوداوات مختبئات، وقد حوصرن بين عنصرية النساء البيضاوات وبين عداء أخواتهن للمثلية. ودائمًا ما تم تجاهل عملهن، أو قلل من شأنه أو أسئ فهمه، كما هو الحال مع أعمال، أنجلين جريمكي[٤]، وأليس دنبار-نيلسون[٥]، ولورين هانزبيري[٦]. ومع ذلك فإن النساء المؤمنات بالروابط النسائية قد كن دائمًا جزءَ من قوة المجتمعات السوداء، من عماتنا العزباوات وحتى أمازونات داهومي[٧]. ومن المؤكد أنه ليست المثليات السوداوات من يعتدين على النساء ويغتصبن الأطفال والجدات في شوارع مجتمعاتنا. وعبر هذا البلد، كما حدث في بوسطن خلال ربيع ١٩٧٩م في أعقاب قضية قتل اثنا عشرة امرأة سوداء، تقود المثليات الحراك في مواجهة العنف ضد النساء السوداوات.

ماهي إذن التفاصيل الخاصة في حياة كل منا التي يمكن نقدها وتعديلها للمساعدة على إنتاج التغيير؟ كيف نعيد تعريف الاختلاف لكل النساء؟ فليست اختلافاتنا هي ما يفصل بيننا وإنما تكاسلنا عن الاعتراف بهذه الاختلافات وعن التعامل بفعالية مع التشوهات التي نتجت عن تجاهلها وعن اساءة تسميتها.

كأداة للتحكم الاجتماعي، تم تشجيع النساء على الاعتراف بمجال واحد للاختلاف الإنساني بوصفه مشروعًا، وهو مجال الاختلافات بين النساء والرجال. وقد تعلمنا أن نتعامل عبر هذه الاختلافات بكل ما يفرضه علينا وضعنا كتابعات ومقموعات من اهتمام بالغ. وكان علينا جميعًا أن نتعلم أن نحيا أو نعمل أو نتعايش مع الرجال، بدءاً من آبائنا. وقد اعترفنا بهذه الاختلافات وتفاوضنا حولها، حتى عندما مثل هذا الاعتراف مجرد استمرار للنمط القديم من ثنائية السيد/التابع للعلاقة الإنسانية، حيث ينبغي على المقموع أن يعترف باختلاف السيد حتى يبقى على قيد الحياة.

ولكن بقاءنا على قيد الحياة في المستقبل يتوقف على قدرتنا على بناء علاقاتنا في إطار المساواة، وكنساء، ينبغي أن نجتث الأنماط المستبطنة للقمع في ذواتنا، إذا ما كان لنا أن نتقدم إلى ما وراء الجوانب الأكثر سطحية للتغيير الاجتماعي. والآن ينبغي أن نعترف بالاختلافات بين النساء اللاتي هن متساويات معنا، فلا هن أدنى ولا أعلى، وأن نوظف سبلًا مختلفة لاستخدام اختلافات كل منا لإثراء رؤانا ونضالنا المشترك.

إن مستقبل كوكبنا قد يعتمد على قدرة كل النساء على تعريف وتطوير تعريفات جديدة للسلطة وأنماط جديد لبناء العلاقات عبر الاختلاف. فالتعريفات القديمة لم تخدمنا، ولا خدمت الأرض التي تدعم وجودنا. فهذه الأنماط القديمة، بغض النظر عن أي قدر من البراعة أعيد به ترتيبها لتحاكي التقدم، ما زالت تحكم علينا بتكرار معدل بشكل تجميلي فقط للتبادلات القديمة ذاتها، وللشعور القديم نفسه بالذنب، وللكراهية، والإدانة، والرثاء، والشك. ولأن في داخلنا جميعًا ثمة مخططات قديمة للتوقعات وردود الأفعال، وبنى قديمة للقمع، ويجب لهذه كلها أن تتغير في نفس الوقت الذي نغير فيه ظروف المعيشة التي تنتج عن هذه البنى، لأن أدوات السيد لا يمكن لها أبدًا أن تهدم منزله.

وكما أوضح باولو فريري بشكل رائع في "تربية المقموعين"[٨] فإن التركيز الحقيقي للتغيير الثوري ليس فقط على المواقف القمعية التي نسعى إلى الإفلات منها، ولكن على هذا الجزء من القامع المزروع عميقًا داخل كل منا، والذي يعرف فقط تكتيكات القامع، وعلاقاته.

إن التغيير يعني النمو، والنمو يمكن أن يكون مؤلمًا. ولكننا نصقل تعريف الذات بتعريض هذه الذات من خلال العمل والنضال معًا، لهؤلاء الذين نعرفهم على أنهم مختلفين عنا، على الرغم من أنهم يشاركوننا الأهداف ذاتها. فبالنسبة للسود والبيض، وللأكبر والأصغر سنًا، وللمثليات والغيريات، على السواء، يمكن لهذا أن يعني سبلًا جديدة لنجاتنا.

لقد اخترنا بعضنا البعض

واخترنا حافة معاركنا.

الحرب هي ذاتها

إذا ما هزمنا

ستتخثر دماء النساء يومًا ما

على سطح كوكب ميت

وإذا ما انتصرنا

فلا أحد يعرف ما قد يكون

نبحث فيما وراء التاريخ

عن لقاء جديد وممكن أكثر.[٩]

---

[١] ١٩٨٠ ورقة قدمت في كوبلاند، جامعة أمهرست -

[٢٢] - ERA: Equal Rights Amendment

[٣] - " Rape: A Radical Analysis, An African- American Perspective" by Kalamu ya Salaam in Black Books Bulletin (١٩٨٠).

[٤] - Angelina Grimke

[٥] - Alice Dunbar- Nelson

[٦] - Lorraine Hansberry

[٧] - Amazons of Dahomey

[٨] - The Pedagogy of the Oppressed- Paulo Freire, Seabury Press, New York, ١٩٧٠.

[٩] - From "Outlines" unpublished poem.